



## القومية العربية بين شعارات القادة وإيمان الشعوب

التاريخ: Friday, August 07

اسم الصفحة: آراء وأفكار

شاكر النابلسي

بعد الحرب العالمية الأولى، وظهور بوادر تقسيم العالم العربي إلى مناطق نفوذ بين بريطانيا وفرنسا وإيطاليا كإحدى غنائم الحرب، بدأ الكتاب والمفكرون القوميون العرب في الثلاثينات والأربعينات من هذا القرن يركزون كتاباتهم ويكرسون أقلامهم لشرح وبيان العناصر التي تتكون منها القومية العربية، وذلك لبث الروح القومي في صدور الناس حتى يتحركوا ويثوروا ويتحرروا من الاستعمار الجديد.



رومانسية الدعوة القومية  
وكان الخطاب القومي في الفترة الممتدة بعد الحرب العالمية الأولى إلى مطلع الخمسينات في جانب كبير منه خطاباً قومياً رومانسياً صوفياً شفافاً. ويقول محمد عابد الجابري إن هذا الخطاب كان له الفضل في "الإبقاء على الفكرة القومية حية. وهذا معناه الاستغناء عن المُشخَّص والإعلاء من شأن المُجرد، ولكن لا المُجرد العقلي بل المُجرد العاطفي، أي ما هو وجداني.

وهكذا حصل نوع من التعالي بالفكرة القومية ارتفع بها إلى مستوى التفكير الاستدلالي والخطاب الحجاجي" (المشروع النهضوي العربي، ص 106).

دور العقل في الدعوة القومية

إلا أن العقل في الخطاب القومي كان له دوره المميز في هذه الفترة من خلال مفكره القلائل المعدودين. وكان من أبرزهم في بلاد الشام ممن كتبوا في المسألة القومية في العام 1938 قسطنطين زريق من خلال كتابه في "الوعي القومي". وكتب في العام نفسه الشيخ عبد الله العلايلي كتابه "دستور العرب القومي" وحدد فيه الملامح الستة التي يرتكز عليها الشعور القومي وهي: اللغة، والمصلحة العامة، الوحدة الجغرافية، رابطة الدم، والتاريخ المشترك، والتقاليد المشتركة. وقد رد عليه المفكر اللبناني نبيه أمين فارس في كتابه "الحياة العربية" منكرًا أن تكون هذه الأعمدة هي الأعمدة السليمة للشعور القومي، مشيرًا إلى أن بعض ملوك العرب لم تكن دماؤهم عربية مائة بالمائة. وأن كثيرًا من العرب قد عاشوا في العالم العربي زمنًا طويلاً دون أن يصبحوا عرباً. وأن الدين ليس رابطاً قومياً بدلالة أن هناك كثيراً من المسيحيين وغير المسلمين عرب.

مصادر الفكر القومي

وكتب ساطع الحصري في العام 1946 "آراء وأحاديث في الوطنية والقومية". وفي العام نفسه كتب علي ناصر الدين كتابه "قضية العرب"، وكتب محمد عزة دروزة عن "الوحدة العربية".

وقد اتسمت هذه الكتابات بطرح مفهوم عام لمعنى القومية. وكان الحصري أكثر مفكري هذه المرحلة تحديداً وتفريقاً بين القومية التي هي الارتباط بأمة، والوطنية والتي هي حب الوطن. وكانت مصادر الفكر القومي لدى الحصري نابعة من مصدرين أساسيين:

الأول عربي، والمتمثل بفكر ابن خلدون ونظريته في "العصبية". والثاني غربي ألماني، والمتمثل في النظرة الرومانسية

الألمانية للفكرة القومية، والتي قال عنها الباحث الألماني بهرندت Behrendt من أن تأثير الفكر الألماني القومي الرومانسي على الحصري كان تأثيراً "توفيقياً" وليس "تقليداً أعمى" في مجال الثقافة Acculturation وتلاقح الثقافات. وأن الحصري استطاع أن يبني نظريته في القومية العربية بالمزج بين النظرية القومية الألمانية والحضارة العربية والواقع العربي.

عناصر القومية العربية

وأجمع معظم مفكري هذه الفترة على أن عناصر القومية هي: اللغة، والتاريخ، والجغرافيا، والتقاليد، والأدب، والذكريات، والمصالح. وإن كان بعض مفكري هذه الفترة كإدموند رباط الفكر اللبناني قد أنكروا أن تكون رابطة الجنس أو وحدة الأصل من الروابط التي تحقق الوحدة القومية. كما أنكروا أن تكون وحدة الدين من تلك الروابط. على أن دور المصالح المادية - وهو الأهم في رأينا - لم يولَّ العناية التامة، ولم يتصدَّ له علماء اقتصاد متخصصون في تلك المرحلة لكي يرون المواطن العربي والقارئ العربي أين "قرصَ عيشه" الحقيقي في الدعوة إلى القومية العربية ووجدتها. وكيف ستكون حياته ومستقبله مع قوة حركة القومية العربية بالأرقام وبالحقائق، وليس بمجرد الآمال والأحلام والخطاب الحماسي والخيالات الشعرية التي لم تك تشبع الأفواه الجائعة آنذاك، وبعد ذلك.

لماذا أصبح الخطاب القومي محورياً رئيسياً؟

أصبحت القومية العربية محورياً رئيسياً من محاور الفكر العربي المعاصر في النصف الثاني من القرن العشرين لأسباب كثيرة، منها:

1. الصراعات السياسية التي نشبت بين الدولة العربية وبين الأحزاب السياسية وبين الطوائف العربية.  
2. التهديدات العسكرية الخارجية التي شهدها الوطن العربي بدءاً بحرب السويس 1956، وانتهاءً بحرب الخليج 1991 التي لا زالت ذيولها ممتدة حتى الآن.

3. عدم وجود عزاء للنفس وواقٍ للشخصية العربية وحامٍ لها من التدهور والانحلال غير محور القومية العربية يبحث فيه الفكر العربي، ويدرسه، ويعمِّقه، ويفلسفه، ويذهب به وجهات مختلفة.

القومية العربية بين الفكر والسياسة

وفي فترة من فترات النصف الثاني من القرن العشرين، أصبح محور القومية العربية هو الشغل الشاغل لكثير من المفكرين لاعتقاد ساد في هذه الفترة، وهو أن القومية العربية ستكون بخير إذا تولاها المفكرون وابتعد عنها السياسيون، وقام المفكرون بتعميق جذورها وتخليصها من العواطف السياسية. ذلك أن فكرة القومية العربية جاءت من الأدب والفكر أصلاً، ولم تأت من السياسة. فقد كان منشأ القومية العربية الشعر الجاهلي، ثم تَبَّتْ بالقرآن الكريم. كذلك، فعندما ازدهرت فكرة القومية العربية في أواخر القرن التاسع عشر في بلاد الشام، فذلك كان مرده إلى أن الأدب والفكر في بلاد الشام قد نميا وازدهرا وتطورا، بعد أن اتصلوا بالغرب وعرفوا من الغرب فنونه الجديدة وأساليبه الحديثة، وانتشرت المدارس والجامعات في بلاد الشام في هذا القرن.

المراحل السياسية والفكرية للخطاب القومي العربي

أرى أن تتم دراسة مفهوم القومية العربية في النصف الثاني من القرن العشرين من خلال مراحل سياسية ثلاث، ولنا حجتنا في ذلك، وهذه المراحل الثلاث هي:

1- المرحلة الناصرية التي امتدت طيلة حكم جمال عبد الناصر (1952-1970) أو على وجه التحديد من (1954-1970) وهي الفترة التي أصبح فيها عبد الناصر (1918-1970) الحاكم الفعلي لمصر بعد الانقلاب الأبيض على اللواء محمد نجيب (1901-1984). وكان مفهوم الناصرية من أكثر المفاهيم عسراً في الفكر العربي المعاصر. فقد اختلف في تعريفه المؤرخون اختلافاً بيناً. فمنهم من قال إنه مجموعة خطب وتصريحات عبد الناصر التي بثت أفكاره. ومنهم من قال إنها مجموعة الممارسات السياسية التي قام بها عبد الناصر وشكَّلت فيما بعد هذا المفهوم. ومنهم من قال إنها مجموعة القرارات التي اتخذها عبد الناصر. وفي زعمي أن "الناصرية" هي كل هذا مجتمعاً، إضافة إلى كل ما كتب عن عبد الناصر كسلوك سياسي من قبل مرديه ومن قبل خصومه خلال مدة حكمه وبعد نهاية مدة حكمه. وستبقى الناصرية كفكر ناقصة إلى أمد طويل وإلى حين اكتمال تقويمها من قبل مختلف فئات المثقفين وعلى ضوء كثير من المستجدات في الفكر السياسي العربي وفي التجربة السياسية العربية.

وفي هذه المرحلة انطلقت فكرة القومية في مصر من مجرد شعارات وكلام صالونات إلى تطبيق جزئي في الحياة

السياسية، تمثلت في الدعوة الناصرية إلى التضامن العربي من خلال حرب السويس 1956 وفتح أبواب مصر أمام الفكر القومي والمفكرين القوميين. ومن الجدير بالذكر أن عبارة "القومية العربية" ظهرت للمرة الأولى في خطاب عبد الناصر في العام 1955. وظل هذا الاستعمال محدوداً حتى تأميم قناة السويس في العام 1956، التي أطلق عليها عبد الناصر "قناة العرب" حيث شهد فجأة تطوراً عارماً لفكرة وحركة القومية العربية في خطب المرحلة. في حين كان الوعي القومي لدى عبد الناصر عشية قيام الثورة المصرية في حالة اللامنتوق non-dit. ولم يعبر عنه عبد الناصر كلاماً وكتابة إلا في العام 1953 من خلال أطروحته "فلسفة الثورة" (أنظر: مارلين نصر، "مفهوم القومية العربية لدى عبد الناصر"، ص8).

وقبل هذا التاريخ كان المفكرون العقلانيون الذين تناولوا المسألة القومية العربية في مصر، يصرون على أن مصر ذات انتماء قومي عربي ضعيف، ويعللون نظرتهم هذه بسبب أن انتماء مصر القومي العربي يُعتبر انتماءً من الدرجة الثانية أو من الدرجة الثالثة، وليس من الدرجة الأولى كما هو حال بلاد الشام مثلاً. ومن خلال هذه الدرجة في التصنيف، فقد اعتبروا مصر بلداً لا يمكن تصنيفه بأنه بلد قومي.

ورغم ما قام به عبد الناصر من جهد سياسي وقومي عربي كبير في مصر إلا أن صورة القومية العربية بعد رحيله عادت إلى مصر كما كانت قبل مجيئه. فكانت صورة القومية العربية في مصر في عهد السادات 1970-1981 باهته. وكان الانتماء الديني أقوى من الانتماء القومي العربي. وعندما نقسم المجتمع المصري إلى أربع فئات، نرى أن الفئة الأولى كان انتماءها إلى الإسلام أولاً، ثم إلى مصر والعرب ثانياً. وأنها متشددة في هذا وملزمة به. وأنها غير متسامحة كثيراً، ولا تسمح بالحرية كثيراً. وأن الفئة الثانية ذات انتماء مصري أولاً، ثم انتماءها القومية العربية ثانياً، ثم إلى الإسلام ثالثاً. وأنها لا تقبل التغيير، مثلها مثل الفئة الأولى في الوقت الذي لا تتشدد فيه، وتتسامح، وتمنح الحرية. وأما الفئة الثالثة فهي ذات انتماء مصري أولاً، وانتماءها الإسلامي والعربي يأتي في الدرجة الثالثة. وهي فئة قابلة للتغيير إلى حد ما، ومتشددة، ولكنها غير متسامحة كثيراً، أو مانحة لكثير من الحرية، مثلها في ذلك مثل الفئة الأولى.

أما صورة القومية العربية في مصر في مقتبل عهد عبد الناصر، فقد بدأت تتغير بعد العام 1956. وكان المثال البارز في هذا الشأن عندما بدأ عبد الناصر دعوته القومية العربية بوضع دستور 1956 المصري، الذي أقر لأول مرة في تاريخ مصر دستورياً، أن مصر جزء من العالم العربي. وجاءت معركة السويس في العام 1956، فوضعت مصر في مركز قيادة حركة القومية العربية عندما حول عبد الناصر معركة السويس من معركة مصرية مع إسرائيل والغرب إلى معركة عربية. وبذا، وضع عبد الناصر فكرة القومية العربية موضع التطبيق السياسي الفعلي بعد أن كانت هذه الفكرة مقصورة في العالم العربي وفي بلاد الشام على وجه الخصوص على أحاديث الصالونات الفكرية، التي كان يرتادها أصحاب اللياقات المنشأة، وعلى أدبيات الأحزاب السياسية العربية القومية كحزب "البعث العربي الاشتراكي" و"حركة القوميين العرب". وبذا فتح عبد الناصر الباب أمام الفكر السياسي العربي لكي يجتهد ويجد في مزيد من التنظير والبحث في الفكرة القومية، التي شهدت أدبياتها في عهد عبد الناصر نشاطاً وازدهاراً لم تشهده طيلة تاريخها الطويل الممتد. كما تمثلت التطبيق السياسي للقومية العربية في فترة قصيرة في تجربة الوحدة المصرية - السورية (1958-1961) والاشتراك في ثورة اليمن 1962، ومشروع الوحدة الثلاثية بين مصر وسوريا والعراق في عام 1963، وقيام منظمة التحرير الفلسطينية في العام 1964 التي أصبحت فيما بعد - بمختلف جبهاتها - تجمعاً عسكرياً وفكرياً لا يضم الفلسطينيين وحدهم ولكنه يمثل - ولو فكرياً - مختلف الفئات الفكرية العربية وخاصة الشرقية منها التي التفت حول المنظمة تؤيدها وتدعمها بفكرها. ومن الجدير بالذكر أن جبهة التحرير الفلسطينية التي كانت تضم عدة جبهات ومنظمات مختلفة من اليمين واليسار استقطبت حولها مجموعة من مفكري وكتاب العرب القوميين المناصرين والمنظرين لها من مصر وسوريا ولبنان والأردن والعراق والخليج والمغرب العربي. وفي الأسبوع القادم نتحدث عن المرحلتين الثانية والثالثة، إن شاء الله.

هذا الخبر من موقع جريدة المدى  
<http://www.almadapaper.com>